الوقعة الظالمة

عجب بنو كنانة إذ أصبحوا فوجدوا مكان بنى عمهم خاليًا من خيامهم، ولم يعرفوا الباعث الذى دفعهم إلى الإسراع عنهم فى أول ليلة حلوا بها فى أرضهم؛ ولم يعلموا أين ساروا، ولا أية وجهة قصدوا، إلا ما دلت عليه آثارهم التى خلّفوها فوق رمال الصحراء فى سيرهم نحو الجنوب.

ولكنهم مع ذلك لم يأسفوا على فراقهم، ولم يجزعوا لمسيرهم، بل أحسوا أن عبئًا ثقيلا قد انزاح عن عاتقهم، لأنهم كانوا موقنين أن إقامتهم فى جوارهم لابد أن تجر عليهم عداوة ذلك الملك الثائر القوى امرئ القيس، وتورطهم فى حرب مع حلفائه من بكر وتغلب، وهم جيرانهم فى الأرض وأقرباؤهم فى المصاهرة والمعاملة. ولقد كانوا فى ترحيبهم ببنى عمهم، وقبولهم جوارهم، إنما ينزلون اضطرارًا على حكم المروءة، خشية من معرة الجبن، وأنفة من رد اللاجئ إلى حماهم؛ فما كانوا ليرفضوا نجدة بنى عمهم الذين أتوا إليهم ليلوذوا بحمايتهم، ويطلبوا معونتهم، ويستظلوا بظلهم. ولهذا لم تخلُ قلوبهم من شعور بالارتياح عندما رأوا مكانهم خاليًا فى الصباح.

ومضت الليلة التالية عليهم وهم مطمئنون وادعون فرحون بذهاب بنى عمهم عنهم بغير أن تمس مروءتهم أو يخفر جوارهم.

ولكنهم ما كادوا يستقيظون فى فجر اليوم الذى بعدها، حتى سمعوا بين الخيام صيحة عالية تنذرهم بقدوم عدو يملأ أرضهم ويحيط بأطراف منازلهم. وما كادوا يخرجون من البيوت ليعرفوا حقيقة ما أتى به الصريخ، حتى رأوا الخيل موزعة خلال الديار، وفرسانها يقعون بالسيوف فيمن يلقاهم من أهلها، فسارع الرجال إلى الخيل يحاولون أن يقفوا ما استطاعوا لذلك العدو الذى أتاهم على غرة، وباغتهم وهم لا يتوقعون حربًا ولا عدواة.

وعلت بعد حين ضجة القتال، وعم الفزع، وصاح النساء، وبكى الأطفال والتحم القوم فى قتال عنيف، ولكنه كان قتالا غير عادل بين جيش كثيف مقبل فى عدته، وبين جمع مضطرب متفرق لا يكاد يجد فرصة لالتماس السلاح، ولا سبيل إلى ظهور الخيل. فما هى إلا ساعة حتى كانت كنانة فلولا متناثرة، يحارب فيها الرجل على قدميه، فلا يلبث أن يخر تحت سنابك خيل أعدائه المحيطين به، أو يفر فيها الفارس يطلب منجاة ليستطيع أن ينظر فيما حواليه فيتبين من أين يأتى إليه العدو، أو أين ذهب إخوانه فى فزع المباغتة.

وأقبل فارس يركض فرسه بين البيوت فى حنق وهو يصيح: «يا لثارات الملك! يا لثارات الهمام!».

وجعل يضرب يمينًا وشمالًا لا يدع شيئًا إلا خبطه، فإذا لم يجد محاربًا من الرجال ضرب الخيام فمزقها، وقطع أطنابها أو عقر الدواب وضرب أعناقها، حتى بلغ آخر البيوت فوقف على فرسه ينظر حوله وهو فى درعه لا تظهر منه إلا عينان تلمعان من ثقبى المغفر. ثم رفع سيفه فوق رأسه فجعل يلوح به ويصيح فى نغمة وحشية امتزج فيها الفرح بالحقد والشماتة بالمباهاة، فقال: «هلم يا بنى أسد! فها هى ذى الخيل تمطركم فى مأزق الموت؛ أين ما كنتم تهددون به من خيلكم؟ أين نزوتكم يوم سفكتم دماء حجر؟».

ولم يكن قريبًا منه إلا عجوز تسير متعثرة وهى مقبلة نحوه، تريد أن تجرى إليه فيعجزها قيد الشيخوخة، وتريد أن تصيح به فلا يواتيها الصوت. فوقف متعجبًا ينظر إليها ويتأمل سيرها المترنح وحركتها المضطربة.

واقتربت منه وقد بدا على وجهها المجعد غضب زاده تجعدًا، حتى إذا ما صارت منه على خطوات صاحت به بصوت مرتعش كأنه صفير الريح فى القصبة الجوفاء فقالت: «ماذا تصنع بحربنا أيها القاتل؟ حلت عليك لعنة الآلهة!».

فصاح الفارس بها: «اخرسى أيتها الشوهاء! فلولا أنك امرأة لأطحت رأسك القبيح».

فعـادت المرأة فصاحت به ولم تزل تتقدم نحوه والغيظ يزيد من رعشتها: «هلم فاقتلنى - فما أنت من قوم يتورعون عن قتل مثلى. ما الذى دفعكم إلى قتالنا ولم تكن بنا عداوة لأحد؟».

فارتد الفـارس إلى الوراء قليلًا، وضحـك ضحكة عالية وقال: «هـرب قومـك وخلفوك لتحمى ظهرهـم أيتها العجوز الشـمطاء. ما كان أجرأهم على القتال يوم قتلوا حجرًا».

فتقدمت العجوز نحوه مرة أخرى حتى أمسـكت بعنان فرسـه وقالت وهى تهز رأسها بعنف: «لم يقتل قومى حجرًا، ولكن الذين قتلوه فاتوكم وأعجزوكم».

فنظر إليها الفارس مليًّا ثم ضحك ضحكة أخرى وصاح بها: «أهذا ما أوصوك أن تقولى؟ يا لبنى أسد إذ يستعينون بمكر العجائز!».

فصاحـت المرأة بصوت أجش لا يكاد يظهر للسـمع: «من أنت حتـى تكذبنى؟ عليك اللعنـة! لو كنا على حـرب لأعجزناكم عن أن تطأوا أرضنا. من أنت؟ وأين ذلك الملك الذى أتى بك؟ دلنى عليه لكى أصب اللعنة على رأسه كما سفك هذه الدماء البريئة».

فصمت الفارس لحظة مترددًا، وداخله خوف من أن تكون المرأة صادقة، وهجمت عليه الشـكوك بغتة فملأت قلبه حتى أسـرعت أنفاسـه واضطرب قلبه، فنزع المغفر عن رأسـه ليستروح، ثم نظر إلى المرأة وقال متلهفًا: «ماذا تقولين؟ إنك تكذبين!».

فرفعت المرأة رأسها إليه، وهى لا تزال تهتز من الغضب وقالت: «أنت الكاذب ويلك! أقول لك دلنى على ابن حجر. دلنى على ابن حجر».

ثم وقفت تنظر فى وجهه لحظة فرأته ينظر نحوها فى وجوم، ورأت عينيه تطرفان وشفتاه تختلجان، وتبينت فيه أثرًا يشبه الخوف، فقالت له وقد خف ما بها من الحنق: «من تكون أنت».

فقال الفارس بصوت ضعيف وكأنه غائب عن وعيه: «أنا امرؤ القيس. أنا ابن حجر».

فتخاذلت المرأة حتى كادت تسقط ثم جلست على الأرض وجعلت تبكى. فأسرع امرؤ القيس فنزل عن فرسه، وذهب إليها فوضع يده على رأسها وقال لها بصوت مضطرب فيه لهفة وفزع: «هل قلت صدقًا؟ أليست هذه منازل بنى أسد؟ أما حل هنا بنو أسد؟ أما أتوا هنا بالأمس؟ أتقولين إنهم لم ينزلوا هنا؟».

فتحركت المرأة ببطء وقالت بين شهقاتها: «أبيت اللعن أيها الملك! لقد لعنتك فى وجهك وسببتك فى غيظى، ولكنها الأقدار قد أرادت أن تسفك ما سفكت من دماء قومى. حقًا قد أتى بنو عمنا بالأمس ونزلوا فى جوارنا، ولكنهم رحلوا بالأمس خفية ولا نعلم أين ذهبوا. أسرع إلى رجالك، أسرع إليهم ومرهم أن يكفوا عن القتال، فلسنا لك بثأر. إن ثأرك قد فاتك كما قلت لك. أسرع قبل أن يأتى أصحابك على سائر قومى».

فقـام امرؤ القيس صامتًا وهو لا يكاد يقوى على الوقوف ثم رفع يده فمسح العرق الذى بلل جبينه، ووضع المغفر على رأسه وركب فرسـه، وركضه نحو السـهل الذى كانت فرسـانه لا تزال تجول فيـه فى أثر من بقى من بنى كنانة، وهو بين حين وآخر يثب فوق الجثث المعفَّرة المنثورة بين البيوت.

وكان تكشـف الحقيقة المرة صدمـة عنيفة، أصابت رجال بكر وتغلب، وبعثت فى نفوسهم أشـد الأسى والغضب. فلقد جاءوا مع امـرئ القيـس ليحاربوا معه قتلة أبيه بنى أسـد ويسـاعدوه على الانتصاف منهم ونيل حقه الذى لا يشـك فيه عربى. ولكنهم بدل أن يقاتلـوا أصحاب الجريمـة هبطوا على قوم أبريـاء، فخبطوهم خبطة شديدة وهم على غير استعداد؛ وكان هؤلاء الأبرياء جيرانهم وأصحابهم الذين لم تكن معهم سـابقة عداوة: بنى كنانة. حقًّا لقد كانت حربًا مشـئومة ظالمة، ولا يـدرون كيف يتبرأون من دمائها التى سـفكت، ولا كيف يصلحـون من الأذى الذى أنـزل. إن تلك الأرواح التى ذهبت فى هذه الوقعة الظالمة، لن تسـتقر فى نومها، بـل إنها لن تـزال تلزمهم فى كل موقـع، وتتبعهم فى كل منزل، وتسـاعد عليهم أعداءهـم وتأخذهم من ورائهـم، وتصيح فى الليل منادية مُعولة صارخة، تنشـر الوحشة حيث ساروا، وتُحل عليهم الشقاء أينما حلّوا.

ملأ الخوف أفئدة بكر وتغلب، وغلبهم ذلك الشعور الذى يستولى علـى قلب المجرم الذى يصيب البرىء، وذلك الأسـف العميق الذى يتغلغل فـى قرارة نفس الظالم الذى يسـطو على الضعيف؛ فما هى إلا سـاعة بعد هذه الوقعة الخائبة حتى كان الجيش المنتصر يسير ببـطء تـاركًا منازل كنانـة، يقصد إلـى الصحراء المنبسـطة نحو الجنوب، حتـى إذا ما غابت عنه كنانة ووديانها، نزل الرجال عن الخيل ورمـوا حبالها على غواربها فى فتـور، وتركوها ترعى بين الأعشـاب الذابلة فى الفضاء الفسـيح، وأخذوا يوقـدون النيران فى صمت وتراخ، ويصلحون من شـأنهم فى غير اهتزاز إلى النصر الذى أحرزوه، فبعضهم يضمد جرحًا صغيرًا أصابه، وآخرون يستلقون على الأرض الجافة يطلبون بعض الراحة، وقد خيمت عليهم كآبة شاملة.

وانتحـى امرؤ القيـس ناحية مع عامر بن الجـون وجماعة من رؤسـاء تغلب وبكر لينظروا فيما هم فاعلـون، بعد إذ كان ما كان. وكانت شـمس النهار لا تزال رفيقة لم يشـتد بعـدُ حرها، فاتخذ كل منهم مجلسًـا على الأرض، بعد أن مهـده وأزال عنه الأحجار الناتئـة، واحتبوا بحمائل سـيوفهم إذ لم يجدوا ظهرًا يسـتندون إليـه؛ وكان الوجـوم يبدو على وجوههم، ولا يـكاد أحدهم ينطق بكلمة فـى أثناء ذلك. وكان امرؤ القيـس أكثرهم اضطرابًا يختلس النظرات إلى وجوه القوم، وقد شـعر بما ملأ نفوسـهم من الأسـف والشعور بالخيبة.

ولما اطمأن بهم المجلس وهم فى هذا الصمت، نظر امرؤ القيس إلى عامر نظرة أودع فيها كل أمله، نظرة امتزج فيها الاستعطاف والتوسل بالكبرياء والتلهف.

ونظر إليه عامر وشعر بما كان يجول فى نفسه، فلم يملك أن أحس نحوه عطفًا ورقة، إذ فهم من نظرته ما كان فى صدره من بلبلة وخشية. وتحرك فى مجلسه حركة قوية كأنه يريد أن يخلع عن نفسه ما ساورها من الضعف، وينشط إلى مساعدة ذلك الشاب الذى ألقت عليه الأقدار حملاً ينوء به، ولم يخل قلبه مع شعوره بهذه الرقة من شعور آخر امتزج بها، شعور يشبه أن يكون احتقارًا، كان لا يزال يعاوده بين الحين والحين، كلما بدا له ضعف صاحبه وقلة صلاحه لمعاناة مصاعب الحياة.

وأحس عامر عند ذلك أن تلك الساعة لها ما بعدها، فقد كان الجو ممتلئًا بالشكوك، وكانت نفوس القوم عقب خيبة اليوم تطفو فوق هذه الشكوك مترددة مزعزعة بين الانصراف والبقاء، وبين الانفضاض من حول امرئ القيس والاستمرار معه فى نضاله. فاستجمع قواه وعقد النية على أن يدافع هذه الشكوك حتى ينتصر عليها، فبدأ يتكلم وهو يتكلف الظهور فى مظهر الخلى المستبشر فقال يخاطب أصحابه: «أرايتم كيف جنى هؤلاء على أبناء عمهم؟ إنها نذالة وخيانة».

فرفع القوم أبصارهم نحوه فى تردد، وبقوا صامتين فى شىء يشبه الحيرة. وكان جابر بن يحيى التغلبى زوج فاطمة جالسًا فى جانب المجلس يختلس النظرات إلى أصحابه، فرأى التفاتة امرئ القيس إلى عامر، ورأى حركة عامر وسمع قوله، وتحركت نفسه كذلك بالرقة إلى ذلك الشاب الذى ما زالت الأقدار تقسو عليه وتشرده، وتتعقبه بالخيبة. فصاح من مكانه فى شىء يشبه الغضب وهو متجه إلى عامر فقال: «صدقت يا أبا الجون. إنهم ساروا عن بنى عمهم ولم يخبروهم بما عزموا عليه فجازوهم بذلك شر الجزاء على قبولهم جوارهم. وحق الأقيصر إن دماء كنانة فى أعناق بنى أسد».

فتنفس امرؤ القيس عند سماع هذه الأقوال، وداخله شىء من الارتياح والأمل، ولاحت على وجوه الجالسين لائحة من معنى جديد. لقد أخذوا ينظرون إلى نكبة كنانة نظرة أخرى، وسرت فيهم هزة كأن حملا قد أزيح عن كواهلهم. حقًّا إنهم لم يقصدوا قتل كنانة. ولئن أخطأوا وقتلوا منهم طائفة بريئة، فإن وزر ذلك إنما يقع على بنى عمهم الذين غرروا بهم وخانوهم وتخلوا عنهم. وانفتح مجال القول، فبدأ كلثوم بن مالك التغلبى يتحرك للكلام،وانتهز عامر الفرصة فوجه إليه الخطاب قائلًا: «ماذا ترى يا أبا عمرو؟».

فنظر الجميع إلى كلثوم، وكان رجلًا طويلًا نحيفًا، أحمر الوجه، أسود اللحية تلمع عيناه كأنهما عينا فهد أرقط، وبينهما خطان مستطيلان يخيل إلى من رآهما أن الرجل لا يعرف كيف يبتسم.

فرفع رأسه فى بطء، وتكلم بصوت هادئ، فقال: «حقًّا لقد ظلمنا بنى كنانة اليوم، ولقومنا العذر فيما أحسوا من ندم وحزن على هذه الوقعة التى لم يصيبوا فيها عدوًّا. ولكن أبا الجون أصاب وصدق، فإن الذين أجرموا هم بنو أسد، وما لنا ذنب فى دماء هؤلاء الأشقياء الذين ذهبوا ضحية غدر بنى عمهم».

ثم نظر إلى أصحابه من شيوخ تغلب، فقال بصوت رقيق يشبه أن يكون توسلاً: «لقد علمتم أن ابن حجر قريب الرحم منا معشر تغلب، وما يليق بنا أن نتخلى عنه، وهو رجل يطلب ثأره من قتلة أبيه. أما أنا فلن أتخلى عنه بمن أطاعنى، حتى يبلغ ثأره وثأر من قتلنا من كنانة».

فساد الصمت حينًا، ولم يتكلم أحد من بكر، وخشى عامر أن ينخلع البكريون من مساعدتهم، فنظر إلى أحد شيوخهم حِلِّزة ابن مكروه، وكان له صديقًا، وقال له: «ماذا ترى يا أبا الحرث؟ لا زلت أهلًا للمكرمات!».

فتحرك الشيخ، وقد وقع منه ترسل صديقه موقعه وقال: «لهف نفسى على من قتل المنذر من قومى عند جبل أوارة! لهف نفسى على قتال المنذر وأشياعه!».

فبادر عامر يجيبه: «لكم السبق إلى المكارم يا أبا الحارث، ولئن أصبنا بنى أسد لقد أصبنا بهم المنذر».

فأخـذ القوم فى شـجون الحديـث وقد ذهب ما شـعروا به من الوجوم والتشـاؤم، فما زالوا حتى انتهى حديثهم إلى الاتفاق على أن يسـيروا جميعًا مع امرئ القيس فى آثار بنى أسد ليصيبوا منهم ما يشفى من قتلة أبيه.

وسـار الجيـش الكثيف فى تلـك الليلة، وفـى طليعته الأدلاء يتعقبون آثار الهاربين نحو الجنوب.

وسـار امرؤ القيس على فرسـه الشـقراء، وإلـى جانبيه عامر ابن الجون وجابر بن يحيى، وجعل ينظر حوله إلى الفضاء الفسيح الذى تتراقص فيه الكثبان البعيدة فى ضوء القمر السـاطع، وامتلأ قلبه أملًا وبشـرًا بعد ما اعترته غشية من اليأس والخيبة؛ وجعل يترنـم وحده بصوت خافت يناجى به نفسـه. فالتفـت إليه عامر باسمًا كما يلتفت الرجل إلى صبى غرير، وقال له فى عطف لم يخل من استخفاف: «لقد جاشت نفسك يا بن أخى».

فنظر إليه امرؤ القيس وقال وهو يرد على ابتسامته:

ألا يـا لـهف هنـد إثـر قوم ... هم كانـوا الشفاء فلم يصابوا
وقـاهـم جـدهم ببنى أبيهم ... وبالأشقين مـا كـان العقـاب
وأفلتهـن عـلبـاء جريـضـا ... ولو أدركتـه صَـفِـر الوطـاب

فصـرف عامر وجهه عنه وعاوده الشـعور بذلك الازدراء الذى كان يهجم عليه كلما رآه يتعلـق بأذيال الأحلام، لاهيًا عن حقائق

الحياة الجاهمة ومشـكلاتها؛ وضرب جنبى فرسه بعنف، فأسرع به وقال لصاحبه فى لهجة تشبه التقريع: «أسرع، أسرع فقد سبقنا القوم».

* * *